علاقة الإعجاز القرآني بقضية التشكك

تمهيـــــــــــــد :

■■ إن عناية حركة الاستشراق بالتراث العربي الإسلامي وحضارته قد فاقت كل الجهود التي قدمها الاستشراق لاختراق آفاق الشرق الفكرية والحضارية ، واكتشاف أسباب قوته ومقوماته .. لقد أدركت الدوائر الاستشراقية أن الحضارة الإسلامية تشكل حضارة العصور الوسطى التي ربطت العالم القديم بالعالم الحديث ، ومن ثم ساهمت في تحضير شعوب الأرض ، وإيقاظ العقلية الأوروبية التي تشعر بأنها « ابتداءً من الفلسفة والرياضيات إلى الطب والزراعة : مدينة لتلك الحضارة بشيء كثير »[1] .

من هنا انطلقت جهود المستشرقين للتنقيب عن مصادر تراث هذه الحضارة ، لفحصه ، وإخضاعه لما استحدثوه من مناهج ، لكن عقليتهم المشدودة إلى المادة ، والواقع ، والتجريب ؛ لم تستطع أن تهضم المناحي الغيبية الميتافيزيقية في روحانية هذا التراث ■■

وكان لابد أن تثار قضية الإعجاز القرآني في مجال الصراع بين الشرق والغرب ، وأن تشغل جانباً من تفكير العقل الحديث ، لأن النص القرآني يشكل قطب الرحى للحضارة الإسلامية ، ولأن الإقرار بإعجاز القرآن هو إقرار ضمني بمصدره الإلهي ، وإقرار بشرعيته ، واستمراريته ، وإشعاعه الحضاري ، وإثبات لوجود معتنقي تعاليمه .

كما أثيرت قضية الشك في الشعر الجاهلي في العصر الحديث ، في إطار اهتمام المستشرقين بالأدب العربي ، لصلة هذا الأدب بكتاب الإسلام الأكبر ، ولتحمل لغة العرب أسرار الإعجاز القرآني ، ولأهمية هذا الأدب في دراسة الشخصية العربية . من هنا ركزت الحركات الاستشراقية جهودها على الأدب العربي قصد الوصول إلى معرفة العرب واتجاهاتهم لغرض فلسفته ، وتوجيهه إياهم من جانب ، وسعياً إلى كشف المؤثرات التي تركها هذا الأدب في آداب أوروبا المختلفة بجانب ما تركتها آداب اليونان والرومان من جانب آخر[2] ...

ومما يثير الانتباه أن جل المستشرقين جرّبوا حظوظهم في البحث في مجال الأدب الجاهلي . فمن أساطين الاستشراق الذين تناولوا الشعر الجاهلي بالدرس نذكر **فولدكه** ، **وبروكلمان** ، **وبلاشير** ، **وليال** ، **ودلافيدا** ... وتميز موقف المستشرق الانجليزي **مرجليوث** بالتطرف في نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي إذ رفض هذا الأخير جملة .

فما هي علاقة إعجاز القرآن بقضية الشك في الشعر الجاهلي ؟

[١] قضية الإعجاز البياني للقرآن

الإعجاز القرآني قضية ترتبط بجوهر الإسلام عقيدة وفكراً ولغة ؛ إذ كان إثبات هذا الإعجاز هو البرهان القاطع على صحة النبوة الإسلامية ، ولا شك أن إقامة الدليل على الإعجاز القرآني بشقيه الكلامي والبلاغي ، كان يهدف إلى ترسيخ النص القرآني في كل بيئة حضارية جديدة ؛ كما يحمل على ترسيخ الكيان العربي الإسلامي في وجه كل غزو فكري زاحف .

ومناط العناية بالنص القرآني يعود إلى ما أشاعه من حركة في الضمير والفكر والشعور ، وإلى ما تميز به أسلوبه من ثراء في العبارة وخصوبة في مناحي القول ؛ تجعله دائم التجدد والحيوية والتشويق .

(أ) القرآن معجزة لغويـــة :

إن النص القرآني منهج محروس بمعجزة بيانية ، تحدى بها محمد بن عبد الله - رسول الإسلام ﷺ - قومه . ومهما اختلفت مناحي دراسة النص القرآني ، فإنها تنتهي إلى قطبين أساسيين : **اللغة والفكر** . فالقرآن كتاب أدبي وعقيدي في الوقت نفسه ،

بقلم : الدكتور .
عبـــاس أرحيـــلة

في الشعر الجاهلي

■ القرآن خطاب لغوي توسل بالضمير اللغوي لترسيخ الضمير الديني وهو تشكيل لغوي يشخص كل سمات الكلام العربي .

■ القرآن نزل بلسان عربي مبين فمن زعم فيه غير العربية فقد أعظم القـول .
[أبو عبيـــدة]

■ إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر فإن الشعر عربي .
[ابن عباس رضي الله عنهما]

وبالدرجة نفسها[٣] .

بل إن المقصد الأسبق ـ في كل دراسة قرآنية ـ هو النظر في القرآن من حيث إنه كتاب العربية الأكبر ، وأثرها الأدبي الأعظم .

ومنذ بدء الحياة الإسلاميـة أخذ القرآن مكان الصدارة بوصفه النص الأدبي الأول لهذه الأمة ، والكتاب المبين المعجز ، وكتاب الفن العربي الأقدس على حد تعبير **أمين الخولي**[٤] .

ومن ثم فإن فهم الرسالة السماوية بعقيدتها وتشريعها يقوم على فهم هذه الوسيلة الحاملة لفحوى مقاصد الرسالة واستيعابها . فالقرآن خطاب لغوي توسل بـالضمير اللغـوي لترسيـخ الضمـير الديني[٥] .

(ب) النص القرآني تشكيل لغوي يشخص كل سمات الكـلام العربي ..

تحركت الدراسات القرآنية خـلال مرحلة التدوين نحو قضية أساسية هي إثبات عربية القرآن ، مع مقابلة ذلك بما تعارف عليه العرب . وأشير هنـا إلى محـاولتين متقـدمتـين في الدراسـات القرآنية ، عُنيتا بالتدليل على عربيـة القرآن تدليلاً عميقاً ؛ وهما :

١ ـ « **مجاز القرآن** » **لأبي عبيدة** [٢٠٩هـ] الذي يقول فيه : « **نزل القرآن بلسان عربي مبين ، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول** » ، ومن هنا غلب عليه البحث في أساليب القرآن ، متمثلاً بما يشبههـا من أشعار العرب وأساليبهم .

٢ ـ و « **معاني القرآن** » **لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء** [٢٠٧هـ] ، وهو في محاولته لا يفتأ يردد أن القـرآن لا يخرج عن أسـاليب العرب ، وما تعارفت عليه من فنون القول ، وإن كانت له خصائصه التي تفرده عن غيره من ضروب الكـلام ، فـ « **الكتـاب أعـرب وأقـوى في الحـجـة مـن الشعر** »[٦] .

ومن هنـا يتضـح أن الذهنيـة العربية تعاملت مع النص القرآني على أساس لغوي أصيل يتمثل في مادة الشعر الجاهلي ، ذلك الشعر الذي يمثل شاهد إثبات على محاذاة أساليب العرب لأنماط التعبير القرآني . مما يفسر قول **عبد الله بن عباس** :

« **إذا تعـاجم شيء من القرآن ، فـانظروا في الشعـر ؛ فإن الشعـر عربي**[٧] » .

وكان هذا منطلق العناية بدراسة هذا الشعر والكشف عن خصائصه ، والاستعانة به والاسترشاد به في فهم معاني النص القرآني ومقاصده . لكن هل يعقل أن يقوم القرآن الكريم بشعر مشكوك فيه لا قيمة له من الوجهتين : التاريخية واللغوية ؟

وما مصير الإعجاز إذا حام الشك حول رواية الشعر الجاهلي الذي يقوم

مقام الشهادة ؟

[٢] قضية الشك في الشعر الجاهلي

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن هذا الشعر : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه[٨] » ، تُرى هل وجدت أمة عنيت بآدابها عناية العرب بشعرهم ؟ وهل يشك أحد في أهمية الشعر العربي باعتباره المدخل الرئيسي لفهم الروح العربية ؟ ذلك الشعر الذي « **جعلوه ديوان علومهم وأخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم ، وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم** » **كما يقول ابن خلدون**[٩] .

فما مصير هذا « العلم » إذا اكتسحه الشك ؟

لقد أثيرت قضية الانتحال من جديد في العصر الحديث ، وتناولها المستشرقون والعرب ، ومن هؤلاء المعتدل المنصف ، ومنهم المشتط المسرف المتحامل ، وقامت مناقشات وكتبت ردود ، على أن هؤلاء لم يبلغوا في نظرية الانتحال من الشك والإسراف ما بلغه المستشرق الانجليزي مرجليوث ، فقد رفض الشعر الجاهلي جملة[١٠] .

مرجليوث والكيد الخفي . . .

مرجليوث [١٨٥٨ - ١٩٤٠م] مستشرق انجليزي ، تخصص في اللغات الشرقية ، أتقن العربية وكتب بها . اعتلى كرسي الأستاذية في جامعة أكسفورد منذ سنة ١٨٨٩م . زار معظم بلدان الشرق الأوسط ، وتعرف على علمائها . أحصى له نجيب العقيقي في كتابه (**المستشرقون** ٢/ ٥١٨) ثمانية وستين أثراً بين كتاب في أجزاء ، وبحث ، ومقالة ، وترجمة ، وفهرس ، وتعليق ، وبلغات متعددة .

ويلاحظ أن صلة مرجليوث بقضية الشك في الشعر الجاهلي قديمة ، رافقته طوال حياته العلمية ، واستغرقت ربع قرن حتى تبلورت في بحثه « **أصول الشعر العربي** » الذي نشره في مجلة الجمعية الملكية الأسيوية سنة ١٩٢٥م . وهو يفترض أن القرآن جاء بلغة جديدة لا صلة لها بالشعر الجاهلي ... وكأن القرآن لم يكن من بيئة العرب ، ولم يتحدث بلغتهم .. فإذا ما ذكر شاعر جاهلي عادات العرب في الحج أو الصوم ، أو ذكر الأفكار السائدة في الأديان السابقة ، وجاء القرآن بهذه الألفاظ ؛ فإن مرجليوث سرعان ما يحمل ذلك على أن الشعر قيل بعد القرآن وعلى نسقه .

ويبدو أن شعار الرجل هو الطعن في القرآن ، وفي الشعر الجاهلي ، **وأنه لا ينظر إلا بمنظار الشك** ، فهو يهدم كل شيء ، يشك في بداية الشعر ، وفي تدوينه ، ولغته ، وروايته . ويطعن في الإسلام وفي وحيه وعقائده ، وإعجازه .

استمع إليه يقول في « **أصول الشعر العربي** » :

« إن أسلوب القرآن يجب أن لا يكون مختلفاً عن طبيعة الشعر الذي نظموه في اللغة لأول مرة ، لكن إذا كان جمهور الناس قد ألفوا أن يسجعوا النثر ، ويقفوا الشعر في نهاياته المحكمة ، وقد عرض الشعر بشكل واضح قبل الإسلام مشخصاً في هذه الأساليب ، وإذا كان الأمر كذلك ، فإن القول بإعجاز القرآن ينبغي أن يكون على الأقل أصعب من أن يبرهن عليه » .

ودون حاجة إلى تتبع هذا الرجل في مزاعمه ، يكفي أن أقول إن مكره الخفي يهدف إلى إنكار فضل القرآن على العرب وعلى العالم بأسره ، وبالتالي النيل من مكانة العربية التي حملت أسرار الإعجاز .

ولعل **مرجليوث** أحس بنجاح مهمته الدنيئة ، حين نفث سمومه ، وشكك في مصادر الحضارة العربية الإسلامية ، وذلك عندما أهدى له **شوقي** رائعته « **النيل** » التي تحتوي على أكثر من مائة وخمسين بيتاً ، ومما جاء في الإهداء :

« ... **ونسبتها إليك عرفاناً لفضلك على لغة العرب وما أنفقت من شباب وكهولة في إحياء علومها ونشر آدابها وإلقائها كلما طلعت الشمس خلف الضباب دروساً نافعة على أنبل شباب العصر في أعظم جامعات العالم**[١١] ... » .

ولعل **مرجليوث** ازداد يقيناً لما وجد من أبناء « **يعرب** » من يقوم بمهمته ، من أمثال **طه حسين** الذين شايعوه اتجاهه ، فطه حسين حين ألحَّ عليه الشك ـ كما يقول ـ أخذ يفكر ويبحث حتى اهتدى « **إلى شيء إلاَّ يكن يقيناً فهو قريب من اليقين ، ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ،**

■ إن المنهج الذي ابتدعه مرجليوث بإثارة الشك في رواية الشعر الجاهلي إنما هو مكر خفي يطوي إدراكاً لمنزلة الشعر الجاهلي في شأن إعجاز القرآن .

■ ابن خلدون : الشعر ديوان العرب واخبارهم .. يرجعون إليه في علومهم وحكمهم ■

■ أمين الخولي : القرآن كتاب الفن العربي الأقدس والنص الأدبي الأول ■

■ أحمد شوقي : وقع في الشرك .. واهدى رائعته « النيل » إلى مارجليوث ■

■ محمود محمد شاكر : الشعر الجاهلي هو اساس مشكلة إعجاز القرآن ■

ليست من الجاهلية في شيء ، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام » .

ثم يقـــول :

« ولا أكاد أشك في أن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح قليل جداً لا يمثل شيئاً ولا يدل على شيء ، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي[١٢] » .

لكن من الثابت أن جمع الشعر الجاهلي ومدارسته ، منذ بداية النشاط العلمي في ظل الإسلام إنما كان العرض منه خدمة النص القرآني ، فهذا عمر بن الخطاب يستدعي شاهداً لمعنى من معاني القرآن ، في بيت شعر . فلما استمع إلى بيت الشعر ، عقب قائلاً :

« أيها الناس ، تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم ، فإن فيه تفسير كتابكم[١٣] » .

فماذا يعني الشك في هذا الديوان ؟ وأين نلتمس تفسير كتابنا ؟

أنلتمسه في شعر مصنوع ، وُضع على مثال القرآن ، كما يزعم **مرجليوث** ، إنه الكيد الخفي للإسلام ، وإنه رفض الشاهد على الإعجاز القرآني ، ودفع للتدليل عليه . وقد أدرك محمود محمد شاكر ارتباط قضية الإعجاز بقضية الشك في الشعر الجاهلي إيماناً منه بأن الحركة الاستشراقية ركزت جهداً كبيراً على التشكيك في تراث الإسلام ، وبثت سمومها في ميادين متفرقة منه . فاعتبر مسألة الإعجاز « **أعقد مشكلة يمكن أن يعانيها العقل الحديث ، حتى بعد أن يتمكن من إرساء كل دعامة يقوم عليها إيمانه بصدق نبوة رسول الله ﷺ ، وبصدق الوحي ، وبصدق التنزيل . وأيضاً فهي المسألة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية الشعر الجاهلي ، وبالكيد الخفي الذي اشتملت عليه هذه القضية ، بل إنها لترتبط ارتباطاً لا فكاك له بثقافتنا كلها ، وبما ابتلي به العرب في جميع دور العلم ، من فرض منهج خال من كل فضيلة في تدريس اللغة وآدابها[١٤] » .**

ويؤكد **محمود محمد شاكر** ، أن الشعر الجاهلي : **هو أساس مشكلة إعجاز القرآن ، كما ينبغي أن يواجهها العقل الحديث** . ذلك أن المنهج الذي ابتدعه **مرجليوث** بإثارة الشك في رواية الشعر الجاهلي إنما هو مكر خفي يطوي تحت أدلته ومناهجه وحججه ، إدراكاً لمنزلة الشعر الجاهلي في شأن إعجاز القرآن ، لا إدراكاً صحيحاً مستبيناً ، بل إدراكاً خفياً مبهماً تخالطه ضغينة مستكنَّة للعرب وللإسلام .

خاتمـــــــة :

لا شك أن القارىء يدرك الآن خطورة تغلغل الفكر الاستشراقي في جامعاتنا ومناهجنا وفي تفكيرنا الإسلامي المعاصر ، ويدرك أن الحملة التي نظمت قصد نسف الثقة بالشعر الجاهلي ، إنما كانت تهدف في صميمها إلى وضع إعجاز القرآن « **في خبر كان** » . وأن العقلية الاستشراقية الدقيقة في الاستقصاء والبرهنة والاستنتاج ، تقف اليوم واجمة بعد مضي أمر قضية الشك في الشعر الجاهلي ، وقامت الدراسات الأكاديمية الرصينة التي وثقت ذلك الشعر ، كما ارست أسسه ، وحددت ملامحه ، وحققت نصوصه ، ويكفي في الأخير أن أسوق رأي مستشرق آخر ، من بني جلدة **مرجليوث** ، وهو **آربري حين يقول في خاتمة كتابه « المعلقات السبع ، مفنداً أقوال مرجليوث :**

« إن السفسطة ، وأخشى أن أقول : الغش ، في بعض الأدلة التي ساقها الأستاذ مرجليوث . أمر بيِّن جداً ، ولا تليق البتة برجل كان ، ولا ريب من أعظم أئمة العلم في عصره ، وهذا حكم شنيع ، لا على مرجليوث وحده ، بل على أشياعه وكهنته وعلى ما جاؤوا به من حطام الفكر » .

المـــــــراجع :

(١) الإسلام والعرب : روم لاندو - ترجمة منير البعلبكي .
(٢) فلسفة الاستشراق واثرها في الادب العربي المعاصر : أحمد سمايلوفتش .
(٣) مدخل إلى القرآن الكريم : محمد عبد الله دراز .
(٤) دائرة المعارف الإسلامية .
(٥) الفكر العربي : محمد اركون .
(٦) معاني القرآن : تحقيق احمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار .
(٧) طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلام الجمحي - ت. محمود محمد شاكر .
(٨) مقدمة ابن خلدون .
(٩) اصول الشعر العربي : د.س. مرجليوث ، ترجمة د. يحيى الجبوري .
(١٠) « المستشرقون » للعقيقي .
(١١) الشوقيات .
(١٢) في الأدب الجاهلي : طه حسين .
(١٣) الإتقان : للسيوطي .
(١٤) الظاهرة القرآنية : مالك بن نبي ، ترجمة عبد الصبور شاهين (مقدمة محمود محمد شاكر) .